حول مسألة
إشكالية الأدب العربي الثوري

جلال فاروق الشريف

١ ـ منطلق

تفرض مسألة ابداع ادب عربي ثوري نفسها كمسألة اساسية ان لم نقل انها المسألة المركزية في تطور الادب العربي المعاصر . فالنضال العربي الذي استطاع في النصف الثاني من القرن العشرين ان يطرح من خلال ممارساته الايديولوجية بعض المنطلقات لفكر عربي تقدمي باتجاه بناء نظرية للثورةالعربية المعاصرة ، هذا النضال اخذ يطرح في الوقت نفسه مسألة ابداع ادب عربي ثوري يواكب تحرك الجماهير العربية باتجاه اهدافها الوطنية والقومية والتقدمية ويعزز مسيرتها في نضالها ضد التحديات التاريخية التي تواجهها هذه الاهداف . بل ان هذه التحديات لم تبلغ في اية مرحلة سابقة درجة من الخطورة كالتي بلغتها في المرحلة الراهنة .

فلم يعد ثمة ريب في ان حركة التحرر العربية بمختلف فصائلها تخوض في هذه المرحلة مع الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الاميركية اخطر معركة خاضها النضال العربي المعاصر في تاريخه كله . فقد اصبح واضحا ان الامبريالية العالمية متحالفة مع الصهيونية ممثلة في الكيان الإسرائيلي ومع الرجعية العربية العميلة وعلى راسها نظام انور السادات في مصر تحاول في هذه المرحلة ، مستغلة تمزق حركة التحرر العربية ، تصفية النضال العربي الوطني والقومي والتقدمي واخضاع الجماهير العربية كلها واعادتها الى حظيرة التبعية بجميع اشكالها السياسية والاقتصادية والثقافية .

من هذا المنطلق فان ابداع ادب عربي ثوري ، اذا كان مهمة تاريخية مرتبطة بالاهداف النهائية للنضال العربي باتجاه بناء مجتمع عربي اشتراكي موحد ، فان هذه المهمة تبدو في المرحلة الراهنة ليست حاسمة وحسب وانما مستعجلة لاتحتمل الارجاء . فكل شيء اصبح يفرض في هذه المرحلة على الادباء بخاصة وعلى الكتاب بعامة ان يضعوا امكاناتهم كلها فيمعركة المصير الراهنة بابعادها القريبة والبعيدة على حد سواء .

في كانون الاول / ديسمبر / من عام ١٩٧١ انعقد في دمشق مؤتمر الادباء العرب الثامن تحت شعار « الاديب العربي فيمعركة المصير » . واليوم بعد ثمانية أعوام ، ينعقد في دمشق المؤتمر الثاني عشر ، ويجد الادباء العرب والكتاب العرب انفسهم امام معركة المصير نفسها ، وقد بلغت ذروتها . ان ما فرض عليهم نفسه في المؤتمر الثامن ما يزال يفرض عليهم نفسه اليوم ولكن على نحو أشد حسما . ان ما بدا في المؤتمر الثامن ترفا فكريا يبدو اليوم واجبا لا يحتمل النقاش .

ان فرزا حقيقيا يتحقق اليوم بين ما هو وطني ، قومي ، تقدمي ، وبين ما هو خائن ، انفصالي ، رجعي .

ففي اي صف يجب أن يقف الادب العربي المعاصر والادباء والكتاب العرب ! ان الموقف واضح لان المعركة واضحة ، بل لعلها لم تكن في تاريخ النضال العربي المعاصر اوضح مما هي عليه اليوم .

ان على الادب العربي المعاصر ، من خلال الادباء والكتاب العرب وسائر المثقفين في الوطن العربي، ان يبرهن بالنظر وبالممارسة في آن واحد، انه يعرف في اي صف يجب ان يقف . ومن خلال هذا الموقف وحده يمكن للادب العربي المعاصر أن يكون على مستوى المهمة التاريخية المطلوبة منه او لا يكون .

نحن نعلم أن الادب وحده لا يمكن أن يغير العالم . ولكن واجبه كادب من أجل الانسان أن يعي هذا التغيير ويؤمن به ويواكب حركته التاريخية . والمطلوب اليوم أن يعي الادباء والكتاب العرب هذا التغيير وضرورته التاريخية وان يواكبوه ويدفعوه الى الامام بكل ما يملكون من قوة . وليس في هذا جدارتهم كادباء وكتاب وحسب وانما ايضا وقبل كل شيء جدارتهم كمواطنين حقيقيين ، شرفاء في انتمائهم الى مجتمعهم العربي والى عالم الانسانية المعاصر المشرعة ابوابه نحو التقدم والذي يجب أن يدخلوه من أوسع هذه الابواب .

ذات يوم قال الشاعر الروسي « نكراسوف » بوسعك أن لا تكون شاعرا ، ولكن يجب أن تكون مواطنا ، وفي هذا وحده يتجلى اليوم شرف الكلمة وجدارتها . اي أن تكون بالنسبة الينا جميعا كمواطنين منتمين الى الامة العربية في أخطر مراحل دفاعها عن وجودها وبقائها ومستقبلها سلاحا آخر يضاف الى الاسلحة التي تقاتل بها امتنا في الداخل والخارج ضد اعدائها التاريخيين .

* * *

٢ ـ مدخل

اذا كنا قد انطلقنا من أن مسألة ابداع أدب عربي ثوري تفرض نفسها على انها المسألة المركزية في تطورالادب العربي المعاصر ، الا يعني هذا اننا تجاوزنا مسألة اشكالية الادب العربي الثوري ؟ للاجابة عن هذا السؤال لابد لنا بادىء ذي بدء من تحديد معنى كلمة « اشكالية » . اننا نفهم منها مجموعة القضايا التي ترتبط بها بالضرورة مسألة ابداع الادب الثوري . فاذا كان الامر على هذا النحو ، فاننا تجاوزنا مسألة « الاشكالية » ولم نتجاوزها ، في آن واحد . لقد تجاوزناها لاننا اعتبرنا هذه « الاشكالية » مسألة قابلة للحل . ولم نتجاوزها لاننا لم نطرح هذه « الاشكالية » بكل ابعادها اي لم تتناول القضايا التي تطرحها ونتوصل من خلال ذلك الى انارة هذه « الاشكالية » وتوضيحها كأساس لخلق وعي ضرورة ابداع الادب الثوري والتوصل من خلال هذا الوعي لدى الادباء الى ابداع الادب العربي الثوري .

والحق أن مسألة هذه « الاشكالية » ليست بجديدة . فتطور الادب العربي المعاصر بعد الحرب العالمية الثانية قد طرحها بكل ابعادها . فمسألة الادب والثورة دخلت في عداد القضايا الرئيسية التي فرضت نفسها على

الفكر الادبي اذا صح التعبير وتناولها الادباء والكتاب العرب منذ الخمسينات . بل ان مؤتمر الادباء العرب الثامن في مطلع السبعينات قد تناولها بمختلف جوانبها .

كتب صدقي اسماعيل يقول متحدثاً عن حصيلة المؤتمر الثامن :

« خلال الحوار الفكري المتشعب الذي انطوت عليه اعمال المؤتمر الثامن للادباء العرب ، كان ثمة تساؤل كبير يتردد لدى الكتاب والجمهور معا ، ويحمل شيئاً من الجواب نفسه . اذا كان للادب ان يتصدى للقضايا المصيرية على هذا النحو من الالتزام ، الا يعني هذا ان يكون هو النموذج النضالي ـ اذا صح التعبير ـ في تجسيد المسؤولية التاريخية التي تمليها المرحلة الراهنة ؛ ان شعار المؤتمر ذاته « الاديب ومعركة المصير » لايفهم الا من خلال هذه المطالبة المشروعة ، ومن ثم كانت المنطلقات الرئيسية في البحوث والمناقشات اقرب الى المسلمات التي كادت ان تعبر عن عقلية « شبه جماعية » ترفض الارتياب واعادة النظر في امور فرضت نفسها خلال الاعوام الاخيرة .

ـ الالتزام هو الحرية الحقيقية في العمل الادبي .

ـ ما هو مصيري في تجربة الاديب يعني الارتباط العميق بتغييرات الواقع الجذرية في المرحلة الراهنة .

ـ اصالة التراث العربي والتأكيد على ان انبعاثه هو نقطة البداية في محاولات التجديد والحداثة .

ـ حرية التعبير وابداع الاداء الفني يرجعان الى وعي الضرورة التاريخية واكتشاف « حتمية الثورة » على الصعيد الاجتماعي والثقافي ... الخ .

في مثل هذه المنطلقات الدارجة ـ وقد كانت أشبه بالحقائق التي لاتناقش ـ كانت تتراءى ملامح الاديب العربي الملتزم على نحو نموذجي لا يفتقر الا الى معرفة « الشخصية الادبية » الفذة التي يجسدها في الواقع ، والتنويه بميدانها العملي المثمر ...

لقد تساءل الجميع في النهاية « وماذا بعد التوصيات ؟ » ومع انه تساؤل يوجه عادة الى المؤسسات القادرة على التنفيذ ، فان صيغته المباشرة كانت ـ وما تزال ـ تدور حول محور واحد ، هو البحث عن النموذج الذي كان من المتوقع ان تسفر عنه السنوات الاخيرة سواء كان هذا النموذج اثرا ادبيا مبدعا أو ادبيا أصيلا أو محض تأثير ثقافي عميق في حياة الجماهير » . (١)

ماذا تعني حصيلة المؤتمر الثامن هذه كما عرضها صدقي اسماعيل . انها تعني ان مسألة ابداع ادب ثوري معبر عن التزام الاديب بالثورة وبقضايا امته المصيرية قد أصبحت في نظر الادباء العرب اشبه بالحقائق التي لا تناقش كما يقول صدقي اسماعيل . وان المسألة لم تعد مسألة مفهوم الادب الثوري وضرورته التاريخية وانما هي مسألة البحث عن النموذج اي مسألة ابداع الادب الثوري .

فهل يطلب منا اليوم في المؤتمر الثاني عشر ان نعيد طرح المسألة من جديد ؛ ان نتساءل من جديد ما الادب الثوري ؛ وما شروطه الفنية ؛ ما حرية الاديب ؛ ما الالتزام ؛ والى ما هنالك من التساؤلات التي تطرحها مسألة الادب الثوري .

(١) مع حصيلة المؤتمر الثامن للادباء العرب . صدقي اسماعيل . الموقف الادبي العدد (٩ ، ١٠) كانون الثاني ـ شباط ١٩٧٢ (ص ٥) .

ان احدا لا يزعم ان المسألة قد استنفذت كل ما يمكن ان يثار من جدل حولها . ولكن ما استنفذ بالتأكيد هو ان الادب الثوري بدعة . انه المسألة المركزية في تطور الادب العربي المعاصر باتجاه ان يصبح قادرا على التعبير عن حركة الثورة العربية المعاصرة وعلى مواكبتها وخلق وعي ضرورتها التاريخية والاسهام في ايصال هذه الثورة الى اهدافها .

بهذا المعنى فقط يمكن ان نقول اننا تجاوزنا مسألة اشكالية الادب العربي الثوري المعاصر في بحثنا هذا لان التطور الموضوعي لحركة الادب المعاصر قد تجاوزها بالفعل على صعيد النظر على الاقل . انه الآن في مرحلة البحث عن النموذج المنشود « سواء أكان هذا النموذج أثرا ادبيا مبدعا أو اديبا اصيلا أو محض تأثير ثقافي عميق في حياة الجماهير » كما يقول صدقي اسماعيل . ان هذا لاينفي ـ كما قلنا قبل قليل ـ امكان اثارة الجدل من جديد واعادة طرح المسألة . ولكن هذا لايمكن ان يعني بأي حال من الاحوال هدر كل التقدم الذي تحقق عبر سنوات طويلة بصدد مسألة الادب العربي الثوري وكل المكتسبات التي حققها الفكر الادبي حولها.

ان اعادة طرحها مجددا يتم من منطلق واحد فقط هو تعميقها ومواجهة كل ما استجد بشأنها ، لا التشكيك فيها ووضعها موضع التساؤل من جديد . اننا ان فعلنا نكون قد اسهمنا بوعي او عن غير وعي في ظاهرة الردة التي تجتاح لا واقعنا الاجتماعي والسياسي وحسب وانما ايضا واقعنا الثقافي ، هذه الردة التي تريد هدر كل منجزات النضال العربي بما في ذلك منجزاته على جبهة الفكر والادب والفن .

٣ ـ ماهو ثوري في الادب

ذكرنا في مقدمة « منطلق » هذه الدراسة ان طرح مسألة ابداع ادب عربي ثوري مرتبطة بالتقدم الذي حققه الفكر العربي المعاصر باتجاه بناء نظرية للثورة العربية المعاصرة .

فبمقدار ما كان الفكر العربي المعاصر يتقدم باتجاه الثورية كانت مسألة ضرورة ابداع ادب عربي ثوري تتقدم وتترسخ وتصبح المهمة المطلوب انجازها على جبهة الادب والفن كجزء من الثورة الثقافية في المجتمع العربي وكطليعة لها . اصبح المطلوب ان يتقدم الكتاب والفنانون ككتاب وكفنانين وأن يحتلوا مواقعهم في جبهة الادب والفن كطليعة مؤمنة بالثورة ، بضرورتها وبحتميتها ، مبشرين بها مناضلين من اجلها اي ان تنشأ جبهة للادب والفن الطليعيين تقف جنبا الى جنب مع النضال العام للجماهير العربية على سائر الجبهات من أجل تحررها وتقدمها وبناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد .

وبهذا المعنى فان ما هو ثوري في الادب والفن اصبح منذ أن تحددت الاهداف النهائية لحركة الثورة العربية المعاصرة في مقولة التلازم بين النضالين القومي والاشتراكي ، هو كل ما يعبر عن اهداف هذه الثورة ويخدم نضالها في مواجهة اعدائها بأوسع معاني التعبير وبجميع أشكال هذا النضال على اختلافها وتعدد مساراتها في اطار المجتمع العربي كله .

أصبح المطلوب ان تكون في الادب والفن جبهة تؤمن بأن القومية العربية معطى تاريخي قائم في الواقع الموضوعي يؤكده التحليل العلمي وليس شرطا ذاتيا فقط وانه محرك ثوري من محركات هذا الواقع وأن النضال الطبقي نفسه لاسقاط علاقات الاستغلال في المجتمع العربي الذي تخوضه الجماهير العربية متلاحم مع النضال القومي من أجل بناء المجتمع العربي الموحد الذي سقطت منه التجزئة . بل ان النضال الطبقي

والنضال القومي يشكلان كلا موحدا متلاحما جدليا في جميع مراحل تطوره التاريخي وان لا انتصار لهذا النضال الا اذا ظل هذا النضال موحدا في النظر والممارسة على حد سواء . وان كل محاولة للتمييز بين نضال قومي وآخر اشتراكي ليست ضلالا ايديولوجيا وحسب وانما هي مجافاة للحقيقة الموضوعية وللتحليل العلمي الذي هو أساس العمل الثوري التاريخي . انها لايمكن ان تكون في افضل الاحتمالات غير نتيجة لقصور في الوعي ناجم عن نقص في توافر ادوات التحليل العلمي لحركة تطور المجتمع العربي . ان النضال من اجل توحيد المجتمع العربي وتحريره جزء لا يتجزأ من النضال الاشتراكي للانتصار على الرجعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية على النطاق العربي وعلى النطاق العالمي .

ان هذا التحديد لمفهوم الثورة كما استخلصته تجربة الثورة العربية المعاصرة نتيجة ممارسات نظرية ونضالية طويلة منذ مطلع هذا القرن ، قد قدم منطلقات لبناء ادب وفن عربيين ثوريين . بل انه قدم ايضا منطلقات لنشوء حركة نقدية تواكب ادب وفن ثوريين وتدفع تطورهما الى الامام . لقد اصبح بوسع الادب العربي المعاصر ان يشق طريقا جديدا ملتحما بالواقع العربي في حركته الثورية مستندا الى تراث تاريخي عريق ، ومستفيدا من تراث الثقافة الثورية العالمية كلها ومن جميع تقنيات الادب العالمي المعاصر .

٤ ـ حول مفهوم الطليعة في الادب

كما ترتبط الثورة بمفهومها العلمي على الصعيد الاجتماعي بمفهوم الطليعة الثورية كذلك يرتبط ماهو ثوري في الادب بما هو طليعي فيه فالثورية والطليعية مفهومان متلازمان . فكل ماهو ثوري هو بالضرورة طليعي . انه الطليعية وقد بلغت ذروة التزامها بأعمق المحركات الموضوعية للتطور التاريخي للمجتمع البشري وبهذا المعنى فان الطليعية هي قبل كل شيء رؤية للعالم وموقف منه ملتزم بحركة التطور التاريخي الصاعدة .

ولئن كانت هذه الرؤية عند الفيلسوف معاناة عقلانية على صعيد الفكر وعند المناضل ممارسة ملموسة في قلب الواقع بجميع معطياتها التكتيكية والاستراتيجية ، فان هذه الرؤية عند الاديب والفنان تجربة حياتية شخصية يكتشف من خلالها نفسه ومع نفسه يكتشف العالم وبمقدار ماتفرز هذه التجربة من وعي ، وبمقدار ما تستطيع نقل هذا الوعي الى الاخرين ، تأخذ هذه التجربة من خلال الابداع الادبي ابعادها كلها وتلعب الدور المطلوب من الادب ان يلعبه في معرفة العالم وتغييره . فالطليعة في الادب والفن بهذا المعنى هي اولئك الادباء والفنانون الأعمق وعيا للشرط التاريخي للانسان والاكثر قدرة على التعبير عنه والاسهام في دفعه في طريق تطوره الصاعد اي في طريق تحرر الانسان باسقاط جميع علاقات الاستغلال والاضطهاد وبناء الاشتراكية . ان الايمان بالانسان وبالنضال من اجل تحرره وبأنه اتمن رأسمال وبأن النظام الاشتراكي هو شرط هذا التحرر ، ان هذا يشكل جوهر مفهوم الطليعة التقدمي في الادب في عالمنا المعاصر . ويأخذ هذا المفهوم خصوصيته في الواقع العربي من خلال ايديولوجية الثورة العربية المعاصرة . فالطليعية في الادب العربي المعاصر هي الالتزام بهذه الايديولوجية والانطلاق منها لتطوير ادب عربي يواكب النضال العربي المعاصر ويعبر عنه ويسهم في شق الطريق امامه نحو تحقيق اهدافه . والادباء والفنانون العرب الطليعيون هم اولئك الاقدر على استيعاب هذه الايديولوجية ورؤية حركة تطور الواقع العربي من خلالها والتعبير عن هذه الحركة بجميع آفاقها . انهم الطليعة الثورية العربية على جبهة الادب والفن المناضلة مع الجماهير العربية ضد أعدائها التاريخيين من أجل بناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد .

وقد كان تأسيس اتحاد الكتاب العرب في القطر العربي السورى اول محاولة لوضع مفهوم الطليعة موضع التطبيق ، جاء في مطلع بيان تأسيس الاتحاد ما يلي :

« سيكون اتحاد الكتاب العرب في القطر العربي السوري نقطة انطلاق حقيقية لانتعاش ادب عربي تقدمي يبدعه الكاتب العربي الحر الملتزم بقضايا امته المصيرية » ... « وقد نشأ الاتحاد لكي يضم الطليعة المناضلة معتمدا على الصفات الرئيسية البارزة التي تميز بها تاريخ الحياة الفكرية في هذا القطر منذ بداية النهضة الحديثة » وقد حدد البيان هذه الصفات في ثلاثة امور رئيسية هي : القومية والالتزام والتقدمية وبهذا لخص منطلقات ايديولوجية الثورة العربية المعاصر في مجال الادب والفن .

ولم يقتصر مفهوم الطليعة على هذا بل دعا الى انخراط الكتاب المباشر في النضال القومي التقدمي عندما اعلن ان الاتحاد يعمل الى جانب اهدافه الادبية على « اذكاء روح المقاومة والصمود لدى المواطن العربي في وجه الاخطار التي تهدد الوجود العربي وتحاول عزله والغاء دوره الاساسي في النضال العالمي ضد الاستعمار والامبريالية » (مادة ٣ فقرة هـ) وكذلك على « مجابهة الاستعمار والامبريالية والصهيونية والرجعية على الصعيد الثقافي والقومي والسياسي » (مادة ٣ فقرة و) ان مفهوم الطليعة في الادب العربي المعاصر ، انطلاقا مما تقدم لم يعد مسألة نظرية مجردة ماتزال في حيز النقاش . ان المسألة قد حسمت على ارض الواقع واصبحت هدفا بدأ يدخل في حيز التطبيق ، منذ سنوات طويلة .

٥ ـ بعض المنطلقات لادب عربي طليعي

كتب صدقي اسماعيل يقول :

« اذا كان لبعض القضايا الثقافية المعاصرة ان تلزم الفكر باعادة النظر في العديد من المفاهيم الدارجة فان مسألة الروح الطليعية في العمل الادبي تبدو في مقدمة هذه القضايا . ان التساؤل عما هو طليعي في الادب ينثر امامنا جميع الافكار المستجدة في الفكر المعاصر دفعة واحدة ويطالب بتحديد معانيها من الالتزام والعقائدية والتجديد والحداثة الى التراث والنخبة و « التقدمية » والمعاصرة حتى طبيعة العمل الادبي على انه فن محض تصبح موضوعا للدراسة على نحو جديد » (٢) .

وبعد ان يؤكد صدقي اسماعيل ان مفهوم الطليعة في الادب قد ولد مع الالتزام يحدد مهمة الادب على انه « صنع الانسان الجديد » مستشهدا بما قاله برتولد بريخت « ان الواقعية التي ننشدها ترتبط بالحقيقة التاريخية المشخصة ومن ثم فهي تعني ادب المعركة ادب النضال الجماهيري، غير ان هذا لايعني بدوره ان يكون الادب من أجل طبقة ، حتى الطبقة العاملة ، ان مهمته ان يصنع الانسان « الطليعي في كل بيئة » . (كتابات في الادب والفن) (٣) .

ويضيف صدقي اسماعيل قائلا :

---

(٢) حول ماهو طليعي في الادب . صدقي اسماعيل الموقف الادبي . العددان (٥ و ٦ ايلول تشرين الاول ١٩٧١ . (ص ٣) .

(٣) المصدر السابق نفسه (ص ٥) .

« من خلال هذه المنطلقات الاولية تلوح اهمية البحث فيما هو قديم او جديد في نتاجنا الادبي المعاصر ، فيما هو محافظ ، تقليدي ، رجعي ، مشدود الى مسلمات الواقع وفجواته المزمنة ، وماهو مجدد ، طليعي تقدمي ، يستطيع ان يحتل مكانه الحقيقي في الثورة العربية المعاصرة . ومع ان الالتباس والغموض يكتنفان دائما جميع المفاهيم الدارجة المألوفة في تحديد المعالم الرئيسية لكل من القديم والجديد في تجاربنا الادبية الحديثة ، فان الارضية المشتركة التي يتحرك فيها الصراع بين هذه المفاهيم جميعا اصبحت على جانب من الصلابة والوضوح يفسح مجالا واسعا للحوار الثقافي الجاد ، الحوار الثقافي لان القضية تتجاوز حدود الادب ومسائله الفنية ، الى قضايا الثقافة العربية المعاصرة في ميادينها المختلفة » (٤) .

ويذهب صدقي اسماعيل في تحديد مفهوم الادب الطليعي الى ربطه بالمستقبل وانه اذا لم يرتبط بالمستقبل فقد محتواه كأدب طليعي ، ويراه تجربة اصيلة تنتشل نفسها من سياق التاريخ الادبي المتوقع والمرتقب ـ كما يقول ـ وترفض كل مظهر « قطيعي » مألوف تمليه اية مرحلة فالطليعي عنده في الادب العربي المعاصر يجب أن يتفرد بالرؤية الفنية الجديدة للعالم ، ليس على ضوء المعطيات الراهنة للوجدان الجماهيري كما يمكن ان تعبر عنه النخبة او الشعب او الامة في تجربتها البديعية بل على ضوء التطلعا تالتقدمية الجريئة التي تتناول المستقبل العربي . غير ان هذا الموقف المستقبلي الذي يقوم عليه مفهوم الادب الطليعي لايعني رفض الماضي . بل ان صدقي اسماعيل يرى أن لاوجود لموقف مستقبلي اذا لم يقم على اساس اعادة تقييم التراث والكشف عن منطلقاته الاساسية فلا مجال لادعاء الحداثة او المعاصرة لدى اي جيل اذا لم يملك القدرة على تقييم التراث في كل مرحلة ، على صعيد الحوار الجريء حول ماينبغي ان ينطوي ويندثر وقد تجاوزته المراحل ، وما يجب أن يبقى ينبوعا متجددا للتجربة الادبية ، لا لانه ما يزال يلامس الوجدان الجماهيري فحسب بل لانه من المعايير الراسخة لكل تجديد « فمثلا يفرض الواقع العربي القلق موقف الكفاح الثوري على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي.. .. الخ وكما يشترط هذا النضال ان يأخذ العرب بالعقلية المعاصرة واسباب الحضارة الحديثة على النحو الذي يتيح لهم الحوار القومي والعودة الى صنع التاريخ ، فان المناخ النضالي الجامح لهذا الواقع نفسه يحتم بناء الثقافة العربية على اساس « طليعي » جديد هو ان التراثالادبي في هذه الثقافة ينطوي على كل ملامح الاصالة التي اتاحت له الاستمرار خلال العصور وجعلته قادرا على التفاعل مع تجارب الحياة ومعاناتها الوجدانية » (٥) .

هكذا فان صدقي اسماعيل اذا كان يربط مفهوم الادب الطليعي بالمستقبل كما يربطه بالتراث فانه يربطه ايضا بقضايا التجربة الطليعية في العمل الادبي فيرى ان المناخ الثوري يؤكد ان هناك تجارب تقدميةرائدة في الادب والفن يمكن ان تولد وتعطي ادبا طليعيا اذا اتيح للاجيال الجديدة ان تعيشالمعاناة الوجدانية للجماهير العربية في مجابهة التحديالحضاري.

انطلاقا من هذا الطرح الذي قدمه صدقي اسماعيل يمكن ان نحدد المنطلقات الاساسية لادب عربي تقدمي في النقاط التالية :

أولا : ـ القومية فلا مجال للحديث عن ادب عربي تقدمي الا في نطاق الثقافة العربية .

ثانيا : ـ الالتزام اي الارتباط بقضايا المجتمع العربي والاسهام في دفع حركة تطور هذا المجتمع الى الامام في طريق اهدافه التاريخية . « ان هذا الالتزام يمثل نوعا من قلق الكاتب على مصائر الاخرين وحرصه على ان يسهم فعليا في صنع هذه المصائر ومن ثم فان الالتزام لايمكن ان يصدر الا عن ايمان الكاتب الطليعي ان حريته الحقيقية هي في تأديةرسالته الفكرية » (٦) .

ثالثا : ـ التقدمية اي رؤية حركة تطور الواقع العربي في اتجاهها نحو اسقاط كل ماهو رجعي متخلف وتحديث الحياة العربية وتجديدها لتصبح على مستوى العصر .

و « ان من اولى مسؤوليات الكاتب التقدمي ان يعايش نزعات التحرر في تجارب الجماهير ويعبر عنها في انتاجه كيما يصبح هذا الانتاج حافزا على المزيد من أشكال الكفاح في سبيل التقدم »(٧) .

رابعا : ـ الواقعية اي الالتزام بالشرط الانساني العربي في صيرورته التاريخيةمن خلال واقع تاريخي ملموس ومشخص يحددهذا الشرط الانساني الذي يصنع الانسان العربي نفسه من خلاله الا وهو الواقع العربي .

« ان اسمى اشكال الرؤية الواقعية عندما تكون التزاما لا بالانسانية في صيرورتها التاريخية وحسب وانما بالقوى التاريخية التي تصنع هذه الصيرورة باتجاه الحرية وان اسمى اشكال الواقعية كمنهج عندما تكون قادرة على ان تعكس الشرط الاجتماعي التاريخي الذي يناضل الانسان من خلاله للتحرر بكل مافيه من علاقات وصراعات خاصة القوى التيتصنع تحرره وتقدمه » (٨) .

خامسا : ـ المستقبلية اي النضال للانعتاق من الواقع الراهن من أجل مستقبل أفضل اي من أجل صنع الانسان الطليعي في كل بيئة كما يقول بريخت . « ومن ثم فان كلموقع طليعي للادب يفرض على كل اديبأن يكون في صراع عميق مع الواقع ، لا لكي تعود الى الجماهير مهمة الاصطفاء والتقييم فحسب بل لكي تتاح للاديب نفسه حرية التعبير ودوره الطليعي في بناء الوجدان المعاصر . وبذلك يصبح ماهو « طليعي » موقفا ثوريا وينعتق التجديد من معطيات الواقع الثقافي الراهن لكي يتوجه الى المستقبل » (٩) .

٦ ـ آفاق تطوير ادب عربي طليعي معاصر

اذا كانت مسألة ابداع ادب عربي ثوري تفرض نفسها على انها المسألة المركزية في تطور الادب العربي المعاصر ، اصبح بوسعنا الان بعد ان توصلنا الى تحديد بعض المنطلقات لادب عربي طليعي أن نتساءل :

---

(٤) المصدر السابق نفسه (ص ٢٦) .

(٥) المصدر السابق نفسه (ص ٧) .

(٦) بيان اتحاد الكتاب العرب (ص ٦) .

(٧) المصدر السابق نفسه (ص ٧) .

(٨) ان الادب كائن مسؤولا . جلال فاروق الشريف . منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٧٨ . (ص ١٩) .

(٩) حول ماهو طليعي في الادب . صدقي اسماعيل . الموقف الادبي . العددان (٥ ، ٦) ايلول ، تشرين الاول ١٩٧١ .

ـ ما آفاق تطوير ادب عربي طليعي معاصر ؟

وبمعنى اكثر تحديدا :

ـ هل يمكن القول ان لدينا نتاجا ادبيا عربيا معاصرا يمكن ان يعد بداية لنشوء ادب عربي طليعي ؟

ان هذا التساؤل ليس بجديد ايضا . لقد طرح في اكثر من مجال واجيب عنه في اكثر من مناسبة من قبل اكثر من اديب وناقد وباحث .

في مطلع ايلول عام ١٩٧١ اقيم في دمشق حوار بين لفيف من الكتاب العرب في القطر العربي السوري وبين لفيف من الادباء من اتحاد الكتاب اللبنانيين «حول ماهو طليعي في الادب العربي المعاصر» اثيرت من خلال هذا الحوار معظم التساؤلات عن التراث وانتاج الادب المعاصر وهل هناك ادب طليعي وماهي التقدمية في نتاجنا الادبي الحديث . وتنبثق اهمية هذا الحوار من انه تم التوصل من خلاله الى نتائج حاسمة حول مسألة تطوير ادب عربي طليعي ، ماتزال صحيحة ويمكن ان تؤخذ كمنطلق لتحرك جديد في هذا الاتجاه . يقول الدكتور حسين مروة في ندوة ايلول عام ١٩٧١ في دمشق انه بعد استعراض لشهادات خمسة وعشرين شاعرا من اعلام الشعر العربي الحديث يمكن استخلاص المقومات العامة التالية لمفهوم الحداثة في ادبنا العربي المعاصر :

١ ـ الاستجابة لقضايا العصر وطرقه في الرؤية والتفكير والتعبير والتذوق .

٢ ـ لافصل بين الشكل والمضمون . وليس الشكل وحده معيار الحداثة بل هو والمضمون الحديث معا . وحالات انفصام الشكل عن المضمون هي حالات الانقطاع بين الشاعر والحياة .

٣ ـ الشكل الحديث هو الذي يستخدم مختلف ادوات التعبير المعاصر مثل ، الرمز ، الاسطورة ، الحلم ، الفكر ، الحوار .. الخ .

٤ ـ المضمون الحديث معايشة الواقع الحديث بكل ابعاده وتحديد موقف معين من العالم .

٥ ـ رفض النزعة الجمالية التي « تصنف » الموضوعات والالفاظ بين موضوعات والفاظ شعرية واخرى غير شعرية .

٦ ـ الموسيقى الشعرية ليست هي الوزن وحده بل هي مركبة من الوزن ، والصورة ، والمعاني ، والافكار ، والاصوات والوقفات .

٧ ـ التفاعل الداخلي مع العصر يستوجب ايجاد لغة قابلة لحمل التجربة بايحائية مستحدثة .

٨ ـ تطور الرؤية الانسانية ثم الرؤية الفنية في الموقف من العالم هو في اساس البناء الشكلي الجديد في الشعر العربي ...

ويخلص الدكتور حسين مروة من هذا الى القول ان هذه المقومات العامة لمفهوم الحداثة في الشعر العربي المعاصر التي هي في الوقت نفسه مقومات عامة لمفهوم الحداثة في مجمل فنون الادب العربي الحديث تؤلف « القدر المشترك بين مختلف اتجاهات الادب العربي الحديث » وتصلح كقاعدة لحركة هذا الادب تتوافر فيها ـ كما يقول الشروط المقنعة للقول بانها قاعدة تقدمية بل ثورية . ويضيف الى ذلك : « ان هذه المقومات لمفهوم الحداثة في الادب العربي المعاصر كما استخلصناها من شهادات كثير من شعرائنا الحديثين تستمد صفتها التقدمية والثورية لا من حيث كونها بذاتها وحسب تصلح قاعدة تقدمية ثورية لحركة ادبنا هذه ـ كما اوضحنا ـ بل تستمدها كذلك من الدلالة التاريخية التي ترتبط بها موضوعيا . » (١٠)

ويشرح ذلك قائلا : « ان تطور الرؤية الانسانية ثم الرؤية الفنية في الموقف من العالم عند شعرائنا المجددين لم يحدث مصادفة او عفويا دون اساس واقعي من حركة المجتمع العربي ذاته .. فان حركة التطور التي تعتمل منذ اكثر من مائة عام في اعراق شعبنا العربي والتي احدثت خلال هذا الزمن تحولات نوعية ايجابية عدة في اتجاهات حركة التحرر العربية ومسيرتها الطويلة ـ نقول : ان حركة التطور هذه بعينها هي مصدر ذلك التطور في الرؤية الانسانية ثم الرؤية الفنية في الموقف من العالم عند شعرائنا هؤلاء ، كما عند سائر ممثلي الانواع الادبية الاخرى في وطننا العربي (١١) ويضيف الى ذلك قائلا :

« ان تاريخ النهضة العربية الحديثة في القرن التاسع عشر وتاريخ بديلها في القرن العشرين ، اي حركة التحرر العربية يضعان امامنا شهادات واقعية ملموسة صادقة تثبت ان حركة الادب العربي بمجملها لم تكن تتحرك يوما خارج اللحظة التاريخية التي تتحرك فيها تلك المسيرة الدؤوب لشعبنا العربي في طريق التحرر والتقدم ولاخارج المجرى القومي التقدمي الذي تتدفق فيه اشواق شعبنا ونضالاته ، هزائمه وانتصاراته ، ونكساته وانتفاضاته . » (١٢)

وينهي الدكتور حسين مروة اسهامه في ندوة ايلول عام ٩٧١ بالقول:

« في رايي ان الادب لكي يستحق صفة الطليعية من حيث الموقف من العالم ينبغي ان يملك من ثورية عناصر التجربة مجتمعة ومتكاملة ما يدفعه الى مركز الفاعلية القائدة في الجماهير وفي الحركة الثورية الجماهيرية .. وهذا النوع من الثورية المتفوقة يسلتزم ان تكون الرؤية الفكرية والايديولوجية الكائنة وراء موقف الاديب المبدع من العالم رؤية لها ابعادها الفلسفية ورصيدها الثقافي الوافر الفني ومنطلقها الطبقي الواعي وان تكون من النضج والاكتناز بحيث يمكن ان تتحول الى رؤى شاعرية تستمد ينابيعها من الوجدان والفكر معا ، من الشعور والعقل معا ، من الوعي واللاوعي في آن ... اي ان نهدم الحواجز بين منطق التصميم العقلاني وصرامته وبين لامنطقية البداهة والعفوية وسرهما الكثير الخفاء . ويبدو لي ان حركة الثورة العربية لم تنتج ـ بعد ـ ادباءها الطليعيين الذين تتوفر فيهم هذه الشروط . وربما كان مصدر ذلك ان حركتنا الثورية نفسها لم تبلغ بعد درجة نضجها التي من شأنها بالضرورة ان تخلق هؤلاء الادباء الطليعيين . هل من يستطيع الادعاء بأن في ادبنا العربي المعاصر اديبا واحدا يملك القدرة على الفاعلية الثورية في جماهير شعبنا العربي بحيث تقرؤه هذه الجماهير او تسمعه فيضيف الى وجدانها الثوري وعيا جديدا او لهيبا جديدا او حلما جديدا او املا جديدا ؟ ...

ونحن على يقين بأن الحركة الثورية العربية رغم الهزائم والنكسات ورغم الهجمات والمؤامرات من حولها وفي داخلها ، ماضية في تحركها وتطورها وتكامل الظروف الموضوعية والذاتية التي تبلغ بها منزلة النضج الثوري اي منزلة التحول النوعي في مسارها الطويل ... وهي بفضل ذلك ستخلق ادباءها الطليعيين المنتظرين . وليس بعيدا ان يظهر هؤلاء الطليعيون من بين ادباءنا التقدميين المعاصرين انفسهم . » (١٣) فاذا كان الامر هو على النحو الذي وصفه الدكتور حسين مروه وهو كذلك

(١٠) القديم والجديد وماهو طليعي في الادب ـ حسين مروة . الموقف الادبي العددان (٥ ، ٦) ايلول تشرين الاول ١٩٧١ (ص ١٦ ـ ١٧) .

(١١) المصدر السابق نفسه (ص ١٧ ـ ١٨) .

(١٢) المصدر السابق نفسه (ص ١٨) .

ـ التتمة على الصفحة ٧٩

الكاتب	العدد	ص
نور الدين ـ محمد	٢	٧٦
	٣	٥٦
	٩	٦٨
	١١	٧٨
نوري ـ شاكر	٩	٤٢
هـ		
هاشم ـ فاروق	١٠	٦٥
هدوقة ـ عبد الحميد بن	٥	٢٦
هواري ـ صالح	٣	٥٠
هوفمان ـ والتر	٣	٣٨
و		
واسيني ـ الاعرج	٥	٤٤
ونيس ـ زهور	٥	٣٨
وهبي ـ ج. علاوي	٥	٦٢
ي		
ياسين ـ كاتب	٥	٨
ياسين علي ـ هادي	٢	٣١
يفوت ـ سالم	٩	٧١
اليوزبكي ـ د. توفيق	٥	٨٥
يوسف ـ سعدي	٣	٣
	٦	١٠
يوسف ـ كامل	٢	٣٣
يوسف ـ محمد	٧	٣٣

ـ بقية الصفحة ٢٧ ـ

بالفعل ، فماذا نقول اليوم بعد تمزق حركة التحرر العربيـة أمام ضراوة الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية وامام المد الرجعي الزاحف فـي الادب العربي والثقافة العربية ؟ ! مع ذلك فالجواب ليس بالعسير . ان المطلوب اليوم ان تكون للادب والفن العربيين المعاصرين جبهتهما الوطنية التقدمية الصامدة ، تماما كما هو المطلوب على جبهـة النضال السياسي في كل مكان من الوطن العربي .

ان ما اصبح مكسبا على ايـة جبهة من جبهات النضـال العربي ، السياسي والايديولوجي والادبي والفني لايمكن ان يلغى مهما بلغت قسوة الهزائم والنكسات . بل يمكن ان يستعاد دوما ويتحول الى منطلق لتقدم جديد ، اذا كان الايمان بالتقدميـة والطليعيـة جاهزا دوما لـم يتعرض للهزيمة والانتكاس .

ان ما يمكن ان يهزم وينتكس اليوم لا يمكن ان يظل كذلك الى الابـد فليس التاريخ حركة متراجعة الى الوراء بـل حركة متقدمة بكل تأكيد . والمطلوب ان نقصر ما أمكن فترة النكسة والهزيمة وان نرتد على كل ماهو رجعي خائن في نضالنا على جميع الجبهات وفي طليعتها جبهة الادب والفن .

وهذه هي دوما مسؤوليتنا ككتاب وادباء وفنانين اذا كنـا وطنيين حقا ، تقدميين حقا ، مؤمنين بأنفسنا كمواطنين وككتاب وكأدباء وكفنانين .

(١٢) المصدر السابق نفسه (ص ٢٧ ـ ٢٨) .

صدر حديثا

الأفواه

مجموعة قصص لـ

عبد الرحمن الربيعي

منشورات دار الآداب